الفصل السادس عشر
عمل المرأة في المهن الطبية

النساء يدركن أهمية القيام بالعمل الذي يحتاج إلى تكرار، ويجدن فيه رضًا وراحة نفسية.

كتبت في مؤلف سابق بعنوان **أطباء السودان الحفاة**، وكنت حقيقةً أقصد (الطبيبات الحافيات)؛ لأن الكتاب كان عن نساءٍ عظيمات، صدقن النية، فعملن، فأبدعن، فأحيين الأنفس. كتبت في ذلك الكتاب فصلًا كاملًا عن عظمة النساء، وعظم دورهن في مهنة الطب، وابتدرت ذلك الفصل أن للمرأة عطاء غير منقوص في الحياة عامة وفي بناء المجتمع وتنميته، وذلك بما يصبرن عليه من نشاط متكرر لا يطيقه الرجال. عمل النساء في المهن الصحية عملٌ موفقٌ، وعملٌ يقدمن فيه أكثر من الرجال؛ لأنه يحتاج إلى صبر، وهن يتمتعن بهذه الفضيلة. تقول طبيبة الأطفال البريطانية الشهيرة سيسلي وليامز عن عمل النساء في المهن الطبية[90]: «إن النساء يمتلكن: حضور البديهة، والصبر، والانضباط، وتكامل الشخصية، ويظهر ذلك كله في مقدرتهن الفائقة على الإنصات والتبسيط. الرجال لا يطيقون التكرار، ويجدونه مملًا؛ ولكن النساء يدركن أهمية القيام بالعمل الذي يحتاج إلى تكرار، ويجدن فيه

رضًا وراحة نفسية، ومثل هذا العمل لا يمكن الاستغناء عنه في رعاية الصغار والضعفاء». ولعلي أورد هذا النص الرائع بلغته الأصيلة؛ لأن صياغته بلسان كاتبته أكثر بلاغة من محاولتي ترجمته إلى العربية.

(Women possess most of the common sense, discipline, patience and integrity, often displaying a remarkable capacity to listen and simplify. Men are likely to despise routine work and regard it as a core and bore. Women know that practical, monotonous repetitive work can be supremely important, significant and satisfying. It is indispensable in the care of the young and vulnerable.)

كان لا بد من تخصيص فصل عن عمل المرأة (الطبيبة المتميزة) في الطب في هذا الكتاب لأسباب، أهمها:

1. الحاجة الملحة إلى عمل المرأة في الطب في بلادنا.
2. خصوصية عمل النساء في الطب في مجتمعاتنا.
3. إبراز دور المرأة وإسهاماتها في تقدم الطب.
4. المقدرات التي تمتلكها الطبيبة وتتفوق فيها على الطبيب.

التاريخ البعيد والقريب في الشرق والغرب يحفل بأسماء كبيرة وإسهامات مقدرة من نساء عملن في المهنة الطبية، ففي التاريخ الإسلامي لمعت أسماء نساء في الطب والتمريض، منهن: أم العلاء الأنصارية، والشفاء بنت عبد الله، ورفيدة، وزينب طبيبة بني أود، وابنة شهاب الدين بن الصائغ، كلهن اشتهرن

بخدمة المحتاجين إلى الرعاية الصحية؛ كالجرحى، واشتهر بعضهن في العصر الأموي بطب العيون (الكحالة).

وقد تولت ابنة شهاب الدين بن الصائغ رئاسة الطب في المارستان (المستشفى) المنصوري بعد وفاة والدها. أما في العصر الحديث فهناك العديد من النساء اللواتي أسهمن في تطوير الطب ونلن الجوائز العالمية الرفيعة، وكان للنساء في بلادنا نصيبٌ من ذلك، فمنهن من حصلت على براءات الاختراع من المجلس الطبي الأمريكي (PCT)، ومنهن عميدات وأستاذات بكليات الطب ورئيسات أقسام، بل إن منهن من ولجت تخصصات كانت حكرًا على الرجال من الأطباء؛ كالجراحة. بالرغم من ذلك كله تجد بعض العامة – وللأسف بعض الأطباء الرجال – يتشككون في كفاءة الطبيبة.

وفي بلادنا هناك من يتحفظ على عمل المرأة المسلمة في الطب؛ بحجة أنه لا حاجة لخروج المرأة إلى العمل لأن الزوج كفيل بالنفقة عليها، نسي هؤلاء أو تناسوا أن هناك حاجات في المجتمع لا يصلح لها إلا الطبيبات من النساء. وهناك من بعض العلماء من يعترض على عمل النساء في الطب بدعوى تعرضهن للاختلاط وغيره، ولكن العلماء الحكماء لا يفتون فقط بجواز عمل المرأة في الطب، بل يستنكرون الحجر على النساء في ذلك. يقول أحد العلماء من مركز الفتوى: «إن المرأة لها الحق في التعليم ودراسة ما يتناسب وطبيعتها، فإذا تعلمت الطب مثلًا بنية نفع أمتها، وما أحوج الأمة المسلمة إلى الطبيبات المسلمات المتقنات! فإنها تؤجر على ذلك»[91]. ويستطرد فيقول: «وهي تؤجر على هذا العلم النافع الذي تعلمته وعملت به، فتعطى أجر العالم العامل في

تخصصها. وكلما كانت أكثر صدقًا وإخلاصًا كانت أكثر ثوابًا، ولا يقتصر فضل العلم والعمل به على الرجال دون النساء، فتؤجر المرأة ما دامت منضبطة في ذلك بالضوابط الشرعية».

ينص نظام مزاولة المهن الصحية بالمملكة العربية السعودية على أن (ممارسة أي من المهن الصحية لا يقتصر على الرجال، بل هو متاح للجنسين كليهما، فلا توجد أي نصوص نظامية تقيد حق المرأة في ممارسة المهنة الصحية المختصة بها طالما توافرت لديها الشروط المنصوص عليها في المادة الثانية من نظام مزاولة المهن الصحية). ربما يتعجب بعض الناس من أن التشكك والتحفظ على عمل المرأة في الطب ليس ظاهرة شرقية، ولكن كثيرين في الغرب يحملون الأفكار نفسها، فقد جاء في مقال في المجلة الطبيبة البريطانية (BMJ) نشر في عام 2005م أن كثيرًا من العاملين في المهن الصحية ما يزالون ينظرون للطبيبات بريبة، وذلك بالرغم من تزايد أعدادهن، وما يزال بعض الأطباء أصحاب النفوذ يعبرون عن خشيتهم من أن النسبة المتزايدة من الطبيبات ستقود إلى ضياع نفوذ وتأثير الأطباء الذكور ووضعهم المهني[92].

ليس مستغربًا أن بعض أصحاب الأفق الضيق من الأطباء الذكور في الغرب يفكرون بهذه العقلية، فربما أحس هؤلاء بمنافسة الطبيبات وتفوقهن. كتب أحد الباحثين في مجلة الطب الأكاديمي (Academic Medicine) أن المؤسسات التعليمية التي احتفظت بالعنصر النسائي حققت النجاح في العمل الأكاديمي، وخلصت الدراسة إلى أهمية التنوع الجنسي في الأقسام، وأهمية

زيادة وتطوير أعضاء هيئة التدريس من النساء، وتشجيعهن للانضمام إلى المؤسسات التعليمية.

أثبتت الطبيبات تفوقًا على الأطباء في مواساة المرضى وطمأنتهم، ولا سيما في تفهم المرضى؛ ذلك لأن المرأة بطبيعتها متفهمة ومتعاطفة، وتحسن لغة التأثير الإيجابي في المرضى، وتعبر عن عاطفتها ومشاركتها المريض بصدق وحميمية. وهذه كلها من شروط نجاح طمأنة المريض ومواساته. نشرت مجلة (Patient Education Counselling) ملخصًا لسبعة دراسات تحليلية عن العلاقة بين جنس الطبيب والتواصل مع المرضى في المعاينات الطبية، وشملت: أطباء باطنية، وأطباء أسرة، واختصاصيي نساء وولادة. كانت خلاصة هذه الدراسات أن المرضى تواصلوا بصورة أفضل وبصراحة أكثر مع الطبيبات مقارنة بالأطباء[93].

بينت دراسة أخرى للمرضى والأطباء أن الطبيبات أحببن مرضاهن أكثر من الأطباء، وفي الدراسة نفسها ذكر المرضى أنهم أحبوا الطبيبات أكثر من الأطباء، وكانوا أكثر رضًا بالخدمة المقدمة منهن. وتؤكد دراسات أخرى تفضيل المرضى الطبيبات، منها دراسة وضحت أن النساء أكثر تقبلًا لفحص سرطان الثدي وفوهة عنق الرحم عند معاينة طبيبات لهن مقارنة مع معدلات القبول إذا تمت معاينتهن من قبل أطباء ذكور، وعزا الباحثون السبب إلى اختلاف تعامل الأطباء والطبيبات. لعل هذه النتائج كلها تفسر غيرة - إن لم يكن حسد بعض الأشخاص- من عمل النساء في الطب.

تؤكد تجربتي الشخصية ما توصلت إليه هذه الدراسات، وقد لاحظت أن طالبات الطب أكثر حرصًا من الطلاب الذكور في التحصيل، وأفضل نتائج في كثير من الاختبارات. إن تميز طالبات الطب أثناء الدراسة هو الذي يجعل منهن طبيبات متميزات ومتمكنات بعد التخرج في الجامعة، وفوق التميز الأكاديمي فإن النساء - عمومًا - أكثر التزامًا بأخلاقيات المهنة، وقلما يخشى منهن في استغلال مهنتهن، النساء أقرب إلى العمل من أجل الآخرين احتسابًا وليس اكتسابًا. صحيح أن هناك مشكلة تسرب وتناقص في أعداد الطبيبات بسبب الزواج أو انصياعًا لرغبة الأزواج، ولا شك في أن ذلك يمثل هدرًا لموارد ثمينة سخرت لإعداد هؤلاء الطبيبات لمهنتهن، ولا نرى أن ترك العمل بالنسبة إلى الطبيبات أمر حتمي، وحل هذه المشكلة هو تقليل ساعات العمل بالنسبة إليهن.

ولا نرى أن تلزم المرأة بتخصص معين في الطب، بل لها أن تلج التخصصات كلها، ولكن إذا كان السكان - غالبيتهم - في بلادنا نساءً وأطفالًا، وإذا كانت النساء يفضلن نساءً مثلهن للحصول على الخدمة الصحية لهن ولأطفالهن، فإن من الخير أن تكون الطبيبات عماد الخدمة الصحية في مجال طب النساء والولادة والأطفال وطب الأسرة؛ فهن أكثر دراية وخبرة للعناية بالأم والطفل، وأكثر رقة في التعامل. ولأن النساء والأطفال الفئات الأضعف والأكثر عرضة للأخطار في مجتمعاتنا فالحنو عليهم يأتي ممن هم في نفس أوضاعهم.

إن الطبيبات مهيئات فطريًّا لأداء دورهن بتميز وإتقان، فيجب أن يحرصن على استدامة التميز، وعليهن السعي إلى تحقيق دورهن الإنساني

والتنموي من خلال عملهن في مهنة الطب. كيف تحقق المرأة دورها التنموي من خلال عملها في الطب؟ هذا ما أجاب عنه أحد الكتّاب ونورده هنا لوجاهته. يرى الكاتب أن الطبيبة يمكن أن تحقق دورها التنموي بعدة تدابير منها[94]:

1. استصحاب نية خدمة المجتمع وبنات جنسها بتحقيق مبتغاهن من التطبيب والتمريض في جو نفسي مريح.
2. العناية بتطوير مهاراتها الطبية، والاطلاع على الجديد في مجال تخصصها، وحضور الندوات والمؤتمرات واللقاءات المتخصصة في مجالها.
3. الوعي بالدور التنموي للطبيبة، وعلاقة ذلك بوظيفة الإنسان في الأرض، وهي الاستخلاف وعمارتها.
4. التزام القيم والأعراف المجتمعية في التعامل مع المرضى.
5. سنّ القوانين التي تحقق للمرأة حرية مطلقة في عملها دون مضايقات أو تقييد لحريتها، مع تهيئة الجو الآمن البعيد عن المخاطر بصورها كافة، وسن القوانين الصارمة لكل من يتعرض للعاملات في المجال الطبي وغيره من مجالات عمل المرأة.

إن عمل المرأة في الطب ليس أمرًا مستحبًّا فحسب، بل إنه يرقى إلى فرض الكفاية، فلا يَحْرِمنّ أحدٌ ابنته أو أخته أو زوجته إذا رغبت في دراسة الطب، وعلى الأطباء إظهار التقدير والاحترام لزميلاتهم الطبيبات، ودعمهن، فذلك أدعى لأن يحترمهن المجتمع ويثمن دورهن.